بقلم : خالد بن جدية

ابن جرير الطبري

وكتابه

جامع البيان في تفسير القرآن

عالم وكتاب

■■ لمّا كان القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة وسر وجودها ورقيها ، فقد حَظِيَ بعناية فائقة من لدن المسلمين لم يَحْظَ بها كتاب آخر ... فقد فسره المفسرون ، واستنبط منه الفقهاء مادة فقههم ، وأدلى فيه الأدباء دلاءهم ليقفوا على بلاغته وفصاحته وسر إعجازه ، واحتج به علماء اللغة والنحو فيما استخلصوا من قواعد وأحكام ، وأعجب به الشعراء والكتاب فطفقوا يزينون شعرهم ونثرهم بأقباس من معانيه ولُمَعٍ من ألفاظه . ■■

[١] التفسير لغة واصطلاحاً

(أ) التفسير لغة :

أصل كلمة التفسير « الفَسْر » ، وتعني البيان والإيضاح ، وفي اللسان : الفسر هو البيان ، والتفسير مثله ... الفسر : كشف المغطى ، والتفسير : كشف المراد من اللفة المشكل ...

وقد وردت لفظة التفسير في كتاب الله جلَّ وعلا :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (الفرقان : ٣٣) .

« والتفسير لغة يستعمل في الكشف الحسي كما يستعمل في الكشف عن المعاني ، واستعماله في الأخير اكثر من استعماله في الأول . » (علم التفسير للذهبي : ٥) .

(ب) التفسير اصطلاحاً :

« وكلمة التفسير تطلق في اصطلاح علماء التفسير والمعنيين به على العلم الذي يفهم به كتاب الله ... وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه ، وهو أيضاً علم يبحث عن مراد كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان مراده ... »
(علم التفسير للذهبي : ٦) .

[٢] التفسير من الوجهة التاريخية

نظراً لاهمية كتاب الله الحكيم ، فقد عني به المسلمون عناية فائقة ، وشرعوا في تفسير آياته وكشف اسراره منذ العهد النبوي ، ولا تزال عملية التفسير دائبة مستمرة ، وستبقى إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد مرَّ علم التفسير عبر مراحل عدة قبل أن يستقر على صورته الحالية ...

(أ) المرحلة الأولى للتفسير :

لما بعث الله جلَّ وعلا رسوله محمد بن عبد الله ﷺ إلى الناس كافة ، خصه بمعجزة خالدة هي القرآن الكريم بلغة العرب . فكان طبيعياً ان يفهم الرسول ﷺ القرآن جملة وتفصيلاً ، لكن الصحابة لم يكونوا على هذا القدر الرفيع من الفهم ، بل كان فهمهم لكتاب الله ظاهراً ، وجملة فقط ، ولم يكن تفصيلاً إلاَّ للباحثين المدققين منهم ، الذين يدأبون على دراسته ، أو بالرجوع إلى الرسول ﷺ ليطلعهم على ما لم يطلعوا عليه ، وليفسر لهم بعض الذي استعصى عليهم ، ومهما يكن فهمهم فلن يصل إلى مستوى فهم الرسول الأعظم ﷺ .

وفي هذه المرحلة كانت مصادر التفسير محدودة اهمها القرآن الكريم ، وما فسَّره الرسول ﷺ ، وتفسير الصحابة بعد أن أعملوا رأيهم واعتمدوا على الاجتهاد وقوة الاستنباط ودقة النظر ... مستعينين في ذلك باوضاع اللغة واسرارها ، وما كان معروفاً في بلاد العرب من عادات واخبار وقصص ، والظروف التي أحاطت بنزول بعض الآيات ، أما المصدر الثالث فهو ، أهل الكتاب الذين أسلموا ككعب الأحبار وعبد الله بن سلام ، وقد استعان بهم الصحابة المفسرون في تفسير بعض القصص القرآنية التي يجدون لها ذكراً في التوراة والإنجيل .

وقد اشتهر في هذه المرحلة : الخلفاء الراشدون خاصة علي بن ابي طالب ، واشتهر من الصحابة الكرام عبد الله بن مسعود ، وابن عبَّاس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وابو موسى الأشعري ، إلى جانب انس بن مالك ، وابي هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وجابر بن

عبد الله ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم اجمعين ...

وقد يتبادر إلى الذهن أن التفسير في هذه المرحلة كان علماً قائماً بذاته ، لكن الصواب انه لم يكن علماً قائماً بذاته بل كان عبارة عن روايات منقولة بالإسناد كالحديث النبوي الشريف ، ومما امتاز به التفسير في هذه المرحلة قلة الاختلاف بين المفسرين والاستغناء عن الخوض العميق في آيات الذكر الحكيم ، والاقتصار على المعنى العام ...

(ب) علم التفسير في المرحلة الثانية :

لما انجلى عصر الصحابة رضي الله عنهم ، خَلَفَهم تلامذتهم من التابعين الذين كان لهم فضل كبير في إثراء علم التفسير وتطويره ، وتوضيح معاني القرآن الكريم التي لم يوضحها الصحابة ، وقد برعوا في الاجتهاد براعة كبيرة ، واعملوا رايهم إعمالاً دقيقاً وعميقاً ، وقد كان هؤلاء التابعون مبثوثين في مختلف ارجاء العالم الإسلامي . ففي مكة المكرمة قامت مدرسة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بتخريج اعلام المفسرين كسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس - وقيل : إنه بربري من اهل المغرب - وطاوس بن كيسان اليماني ، ومجاهد بن جبير ، وعطاء بن ابي رباح ... اما في المدينة المنورة فقد اشتهر من التابعين زيد بن اسلم ، وابو العالية ، ورفيع بن مهران الرياحي ، وابن كعب القرظي ... اما استاذهم فهو الصحابي الجليل أبي بن كعب . وبعيداً في ارض العراق اسس عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مدرسته العظيمة ، فنبغ فيها الحسن البصري ، وعامر الشعبي ، وعلقمة بن قيس النخعي ، ومرة الهمذاني ، وقتادة بن دعامة السدوسي ... لكن الذي عكَّر صفو التفسير في هذه المرحلة دخول بعض الإسرائيليات التي تسامح بعض التابعين في إدخالها في التفسير مع بطلانها ، وخلال هذه المرحلة احتفظ التفسير بطابعه الأول مع تغيير يسير ، وعرفت هذه المرحلة ايضاً خلافات بين بعض التابعين الذين كانوا ينتصرون لمذاهبهم ، لكن ذلك كان ضعيفاً بالقياس مع من تلاهم .

(ج) التفسير في مرحلته الثالثة :

في هذه المرحلة بدات حركة التدوين لحديث رسول الله ﷺ ، وخلالها انفصل التفسير عن الحديث ، واستقل عنه[1] ، وقد قام المفسرون بجمع تفاسير الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، وهو ما يسمى التفسير بالماثور ، وقد امتدت هذه المرحلة من اواخر عهد بني امية إلى أوائل عصر بني العباس ، وخلالها خطا التفسير خطوات عظيمة إلى ان اصبح مرتباً على المصحف ، وقد تم ذلك على يد ابن جرير الطبري الذي يعد من اكبر المفسرين بالمأثور ، في حين تواصلت الخطوات الأخرى لعلم التفسير تباعاً ولا تزال متواصلة حتى عصرنا هذا . فظهرت خلال هذه المرحلة - التي لمّا تنته بعد - عدة انواع من التفسير يمكن حصرها في خمسة انواع :

(١) التفسير بالمأثور[2] .

(٢) التفسير بالرأي ، أو التفسير العقلي[3] .

(٣) التفسير الموضوعي[4] .

(٤) التفسير الإشاري[5] .

(٥) التفسير العلمي[6] .

[٣] ابن جرير الطبري حياته وآثاره

(أ) حياته :

ولد إمام المفسرين وسلطان المؤرخين وفقيه اللغة الكبير ابو جعفر محمد بن جرير يزيد بن غالب الطبري عام ٢٢٤هـ/٨٣٨م على الأرجح ببلدة « آمد » إحدى قصبات إقليم « طبرستان » المكونة من كلمتي « طبر » اي آلة حربية و « ستان » اي بلاد ، وقد نسب ابن جرير - وغيره من اهل طبرستان - للمقطع الأول فقيل له الطبري ...

عني به والده عناية عظيمة لرؤية رآها في نومه مجملها انه راى الرسول ﷺ وإلى جواره ابنه ومعه مخلاة مملوءة بالحجارة يقذف بها بين يديه . فاستفسر عن تاويل رؤياه ، فقيل له : « إن كبر نصح في دينه وذبَّ عن شريعته » . لهذا قام والده بإنشائه نشاة علمية قال عنها ابن جرير نفسه : « حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت بالناس وانا ابن ثماني سنين وكتبت الحديث وأنا ابن تسع » . وقال ايضاً : « حرص ابي على معاونتي في طلب العلم وانا حينئذ صبي صغير » . ولما كانت بلدته بعيدة عن عواصم العلم والمعرفة فقد غادرها قاصداً في البداية مدينة الري ، فأخذ عن احمد بن حماد الدولابي وسلمة بن الفضل ، وابن حميد الرازي ، ودرس على ايديهم ، حتى إذا آنس من نفسه قدرة على مواصلة الكفاح في سبيل العلم ، انتقل إلى بغداد ثم إلى البصرة فالكوفة وتتلمذ على مشاهير علماء عصره كابن موسى الحرشي وابن عبد الأعلى الصنعاني وأبي كريب محمد بن العلاء الهمذاني وغيرهم ... ولم يلبث ان غادر العراق إلى بيروت فالفسطاط ، ليتصل بأبي الحسن السراج المصري الاديب الكبير ، وخلال هذا الكفاح الطويل في سبيل العلم استطاع الطبري أن يحصل علوماً كثيرة كالقراءات والتفسير والحديث والتاريخ والنحو والبلاغة والفقه ، وقد عرف إلى جانب كل ذلك بخلق متين ، فقد كان عزوفاً عن الدنيا ، شريفاً عفيفاً ، تقياً ورعاً ، انيقاً جميل المعاشرة ، حسن المؤانسة رقيق الطبع ...

(ب) آثاره :

كدأب من يهب حياته للعلم والانقطاع للدرس والتاليف ، فقد صنف الطبري عدة تصانيف اجاد فيها جميعاً ، واستوفى الغاية منها ، ومن اهم مؤلفاته :

١ - « تاريخ الأمم والملوك » ويعد من أكبر الموسوعات التاريخية الإسلامية .

٢ - « أدب المناسك » ويدور حول الطريقة التي تتم بها فريضة الحج .

٣ - « تهذيب الآثار » وهو في علم الحديث ، ويعد من روائع مصنفاته .

٤ - « اختلاف علماء الأمصار » .

٥ - « البصير في معالم الدين » .

٦ - « الخفيف في الفقه » .

٧ - « بسيط القول في احكام وشرائع الإسلام » .

٨ - « آداب النفوس » .

٩ - « القراءات » .

١٠ - « تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين » .

١١ - « العدد والتنزيل » .

١٢ - « جامع البيان في تفسير القرآن » ، وله تصانيف أخرى .

[٤] منهج الطبري في تفسيره الخالد

« عرف ابن جرير بمنهجه الخاص في التفسير ، فهو إذا اراد تفسير آية من القرآن يقول : القول في تاويل قوله تعالى كذا وكذا ، ثم يفسر الآية ويأتي ببرهان ما قاله بما يرويه بسند إلى الصحابة والتابعين من التفسير المأثور عنهم ، وإذا كان في الآية قولان أو اكثر فإنه لا يغفلها ، ويستشهد على كل قول بما يرويه من ذلك عن الصحابة والتابعين ... » (الحضارة الإسلامية لإبراهيم يوسف ومحمد النادي : ٢٤) وهو في ذلك كله يستخلص من الأحكام الواردة في الآية ، ويذكر الأقوال ويرجح بعضها على بعض ، والطبري يستنكر الراي المستقل ، ويعتمد على المأثور من تفاسير الصحابة والتابعين ، فإن لم يجد اعتمد على الاستنباط الواعي والذكي ، وفي اثناء ذلك يذكر ابن جرير الروايات ويرجح بعضها على بعض إضافة إلى الإسناد ، ولا يكتفي بذلك ، بل ينتقد رجال الإسناد إذا شك في صحة ما اسند إليهم او ما رووه ، ويرجح في ذلك مفضلاً بعضهم على بعض ليزيل عن الناظر في كتابه وتفسيره الريبة والشك . ومما يجعل تفسيره صحيحاً

■ أصلح التفاسير التي في أيدي الناس : تفسير محمد بن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين . ■ [ابن تيمية]

ومتيناً إقراره بما اجمع عليه العلماء وأجمعت عليه الامة . ومن امثلة ذلك انه لما عرض لقوله تعالى :

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ (البقرة : ٢٣) ، قال ما نصه : قال قائل : فاي النكاحين عنى الله تعالى بقوله : ﴿ فَلاَ تَحِلُّ ... ﴾ ؟ النكاح الذي هو جماع ام النكاح الذي هو عقد تزويج ؟ فقيل كلاهما : وذلك ان المراة إذا نكحت زوجاً نكاح تزويج ثم لم يطاها في ذلك النكاح حتى يطلقها لم تحل للأول ، وكذلك إن وطئها واطىء بغير نكاح لم تحل للأول لإجماع الامة جميعها . فإذا كان ذلك فمعلوم ان تأويل قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ نكاحاً صحيحاً ثم يجامعها فيه ثم يطلقها . فإن قال : فإن ذلك الجماع غير موجود في كتاب الله تعالى ذكره ، فما الدلالة على ان معناه ما قلت ؟ قيل الدلالة على ذلك إجماع الأمة . » .

ومن خصائص منهجه انه يتحاشى المناقشات عديمة الجدوى والفائدة ، إلى جانب اهتمامه بالقراءات التي هو من كبار علمائها . ويتخلل تفسيره عدد كبير من الإسرائيليات لكن الطبري يورد الصحيح منها والمنسوب للذين أسلموا من اهل الكتاب ككعب الأحبار وغيره .. ، لكنه وقع في بعض الأخطاء كتفسيره لقصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها .

وقد اعتمد في كثير من التفاسير للقصص القرآنية على ما ورد في التوراة والإنجيل وما نقله بالإسناد عن الذين اسلموا من اهل الكتاب كقصة ذي القرنين وموسى ويوسف عليهم السلام .

اما اسلوبه فإنه متميز يتطلب تانياً وتجلداً كبيراً لتتابع معانيه واتصال بعضها ببعض . لكنه مع ذلك إذا آنسه المرء سهل عليه امره ، إلاَّ انه يعتريه في بعض الأوقات غموض في الصياغة والتركيب يحتاج إلى صبر غير يسير . يقول العلامة محمود محمد شاكر في مقدمة تفسير الطبري الذي قام بتصحيحه وتحقيقه وشرحه : « كان يستوقفني في القراءة كثرة الفضول في عباراته وتباعد اطراف الجمل فلا يسلم لي المعنى حتى اعيد القراءة مرتين او ثلاثاً ... وكان سبب ذلك اننا الفنا منهجاً من العبارة غير الذي انتهجه ابو جعفر (الطبري) ، ولكن تبيَّن لنا ان قليلاً من الترقيم في الكتاب خليق ان يجعل عباراته ابين ، فلما فعلت ذلك في انحاء متفرقة من نسختي وعدت بعد إلى قراءتها وجدتها قد ذهب عنها ما كنت اجد من المشقة ... » (مجلة العربي ، العدد ١٢٩) .

وهذا لم يقع لمحمود شاكر وحده بل وقع للمفسرين قديماً كالسيوطي والقرطبي وغيرهما . وهذا ليس عيباً في اسلوبه بل هو ضرب من النثر الفني الجميل غير المثقل بالتكلف والألفاظ المنتقاة ، وهو اسلوب جزل يحتاج إلى قليل من الانتباه واليقظة ..

[٥] قيمة تفسير الطبري ومكانته

اجمع العلماء قديماً وحديثاً على عظم مكانة تفسير الطبري ، قال الإمام السيوطي : « وكتابه - اي الجامع - اجلّ التفاسير واعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والاستنباط ، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين . » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوي : « واما التفاسير التي في ايدي الناس فاصلحها تفسير محمد بن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين ... » .

وقال الإمام النووي : « اجمعت الأمة على انه لم يصنف مثل تفسير الطبري ... » .

وقال ابو حامد الإسفراييني : « لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً ... » .

ومما كتبه المستشرق « نولْدِكَهْ » الالماني قوله : « لو كان بين ايدينا هذا الكتاب لاستغنينا عن كل التفاسير المتاخرة عليه ، ولكنه يبدو للاسف - مفقوداً بالكلية وقد كان مثل كتاب التاريخ لنفس المؤلف نبعاً لا ينضب ، استمد منه المتاخرون حكمتهم ... » .

هكذا نلمس المكانة المرموقة التي يحتلها تفسير الطبري . والتي استحقها عن جدارة تامة لاهميته ، وللطريقة القويمة التي سلكها فيه ، فهو - إذنْ - بحق اعظم واشمل تفسير ، فقد جمع كل المحاولات التي سبقته لتفسير كتاب الله تعالى من لدن الصحابة والتابعين وغيرهم ...

[٦] ضياع تفسير الطبري وظهوره مؤخراً

بالرغم من أن - الجامع - قد عدّ من ادقّ واعظم ما صنف في التفسير فقد اندثر وضاع وفقد ، ولم تر نسخته النور أبداً خلال قرون عديدة ولم يعرفه إلاَّ القليل من العلماء ، ولكن الله تعالى أراد أن ييسر ظهور هذا الكتاب ليرى النور من جديد ، وقد وجدت نسخته كاملة في مكتبة امير حائل . يقول العلامة محمود شاكر : « والنسخ المخطوطة الكاملة من تفسير الطبري لا تكاد توجد ، والذي منها في دار الكتب المصرية اجزاء مفردة من الجزء الأول والجزء السادس عشر ، ومنها مخطوطة واحدة كانت في خمسة وعشرين مجلداً ضاع منها الجزءان الثاني والثالث ... وهي على ما فيها تكاد تكون اصح النسخ ، وهي محفوظة بالدار تحت رقم (١٠٠) - تفسير - » (العربي العدد ١٢٩) .

ويقول الدكتور الحوفي الذي كتب عن الطبري في سلسلة اعلام العرب : « طبع - اي الجامع - سنة ١٩٢١م بالمطبعة الميمنية بالقاهرة ، وبمطبعة بولاق سنة ١٩٢٣م ، ويطبع بدار المعارف - الآن - بمصر بتحقيق الأستاذ محمود شاكر ... » (العربي العدد ١٢٩) .

---

(١) لم يتم هذا الانفصال إلاَّ في فترة متقدمة من المرحلة الثالثة على يد ابن ماجه : م ٢٧٣هـ ، والطبري : م ٣١٠هـ .

(٢) أشهر التفاسير بالمأثور : تفسير الطبري ، وتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي : (م٧٧٤هـ) ، والدر المنثور لجلال الدين السيوطي : (م٩١١هـ) ...

(٣) التفسير بالرأي صنفان : (الرأي الجائز) كمفاتيح الغيب للفخر الرازي (م٦٠٦هـ) ، وأنوار التنزيل للبيضاوي (م٦٩١هـ) وروح المعاني لشهاب الدين الألوسي (م١٢٧٠هـ) ... و (الرأي المذموم)) كالكشاف للزمخشري (معتزلي) (م٥٣٨هـ) .

(٤) وهو الاهتمام بموضوع خاص من القرآن وأهم التفاسير الموضوعية : التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (م٧٥١هـ) .

(٥) يقوم على تأويل آيات الذكر الحكيم على خلاف ظاهرها ... وأهم التفاسير الإشارية تفسير القرآن العظيم للتستري (م٢٨٣هـ) وعرائس البيان لأبي محمد الشيرازي (م٦٠٦هـ) .

(٦) وهو استخراج ما تحمله عبارات القرآن من آراء علمية وفلسفية ... اهتم بهذا الجانب حجة الإسلام الغزالي ، والسيوطي في كتابيه (الإكليل) و (الإتقان) . أما حديثاً فقد اهتم بهذا الجانب الشيخ طنطاوي جوهري والشيخ مصطفى المراغي والشيخ محمود شلتوت .